الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

اللغة والتقاليد والتعلم والعمل.. مشكلات تواجه المهاجرين إلى الغرب

خلال العشرين عاماً الماضية هاجرت مئات الآلاف من العراقيين صوب الغرب وخاصة أوروبا الغربية وأمريكا وكندا. واليوم نزح ملايين العراقيين خارج العراق بسبب العنف والتهجير وعدم الاستقرار الأمني والسياسي. ويتوجه الآلاف من هؤلاء إلى الغرب بحثاً عن الأمن والاستقرار والرفاه. وإذا كانوا قد تخلصوا من مجموعة من المشكلات والتهديدات ، وتوفر لهم الآن الأمن والمعيشة الجيدة ، لكن هناك مجموعة من التحديات يواجهونها مثلما واجهها الجيل الأول والثاني والجيل الثالث.

إن الانتقال من مجتمع شرقي مسلم إلى مجتمعات غربية غير مسلمة وذات ثقافات متعددة يترافق مع نشوء مشكلات نفسية واجتماعية وثقافية كثيرة. وتشهد الجماعات المهاجرة عادة حالة الذوبان التدريجي للكثير من التقاليد والأعراف والقيم والسلوكيات.

د. صلاح عبد الرزاق
باحث

٢-٢

وهناك عوامل موضوعية تتعلق بقوانين البلد وظروفه نذكر منها:

١-عدم الاعتراف بالشهادات العراقية (أو غيرها من بلدان العالم الثالث) أو معادلتها بدرجة أدنى. وغالبية المتخرجين تفرض عليهم الدراسة في جامعة غربية وأحياناً في الصف الأول! فالطبيب وطبيب الأسنان العراقي عليه أن يسجل نفسه في السنة الأولى في جامعة هولندية حتى لو كانت لديه خبرة تمتد لعشر سنوات! (نشرة النخيل ٧٩، أيلول ٢٠٠٢) . ولا تقتصر هذه المشكلة على ذوي الشهادات العالية فقط بل تشمل ذوي الدراسات المتوسطة والمهنية. كما أن كثيراً من الاختصاصات العلمية في العراق لا تنسجم كثيراً مع تلك التي في البلدان الغربية.

٢-تختلف البلدان الغربية في طبيعة قوانينها فيما يتعلق بالعمل، فبعضها يبدي تساهلاً من أجل تشجيع العاطلين على العمل بأية صورة ممكنة وبالقدر الذي يستطيعه. وهناك من يتشدد في ذلك ويشترط توفر مواصفات كثيرة ، مثلاً في هولندا يجب على الذي يريد ممارسة مهنة الحلاقة أن يحصل على دبلوم في الحلاقة من مدرسة أو معهد هولندي. والدراسة قد تستغرق عدة سنوات وباللغة الهولندية ، ويشترط أن يكون سنه دون ٢١ عاماً . كما أن تكاليف الدراسة باهضة والدروس نفسها ليست سهلة . هذه الشروط لا تشجع من مارس مهنة الحلاقة سنوات طويلة على العمل. أما من يريد أن يفتح بقالية أو يعمل قصاباً فعليه أن يدخل دورة إدارة أعمال ويدرس كيفية إمساك صندوق الحسابات ، ويقدم خطة عمل باللغة الهولندية يوضح فيها إمكانية نجاح المشروع.

٣- حالة التمييز الذي يتعرض له الأجانب وخاصة المسلمون ومنهم العراقيون. إذ لا يستطيع هؤلاء الحصول على عمل يناسب كفاءاتهم حتى لو كانوا يجيدون اللغة الأجنبية ولديهم خبرة في الوظيفة التي يريدون إشغالها. وعند الترشيح لوظيفة معينة يجد بعض العراقيين أسباب كثيرة للإعتذار لهم من قبل الشركات والمؤسسات، مثلاً يقال له أن المواصفات التي كنت تستخدمها في بلدك تختلف عنها في هولندا، أو أن مستواك العلمي أعلى من متطلبات الوظيفة، وغيرها من الأعذار الواهية.

٤- وحتى الذين حصلوا على فرص للعمل يتعرضون لشتى المضايقات في العمل والمناقشات الطويلة حول الاسلام والارهاب والتخلف وغيرها. كما يسمعون اتهامات شتى وسخرية وتهكم من زملائهم. بالطبع هذا لا ينفي أن كثير من الشركات والمؤسسات تحترم العاملين فيها بغض النظر عن أصلهم ودينهم. كما يبدي بعض المسؤولين وأرباب العمل تعاطفاً مع المسلمين إذا شعروا منهم الصدق والاخلاص في العمل. ففي أحد المصانع الهولندي قام صاحب المصنع بتخصيص مكان للصلاة في نفس المصنع.

٥- بسبب طول الفترة بين مغادرة العراقي لوطنه وحتى وصوله إلى البلد الغربي ومروره ببلدان أخرى وفترات إنتظار ، ثم انتظاره في البلد الغربي حتى الحصول على الاقامة، كل ذلك يعني مرور عدة سنوات عليه وهو منقطع عن عمله ، أي يحدث لديه تراجعاً في خبرته ومستواه ومتابعته لآخر التطورات العلمية خاصة لدى أصحاب الاختصاص. ولا يقع ذلك على عاتقه لكن ظروفه حتى التي حالت دونه من أجل المحافظة على لياقته الجسدية ومستواه العلمي.

٦- وبرغم هذه الصعوبات تمكن العديد من العراقيين في فتح محلات تجارية وشركات ومكاتب خاصة بهم. وقد توسع بعضهم لينافس الشركات الأوربية. فهناك من يعمل في قطاع اللحوم والدجاج وتصنيعها وتعبئتها، وهناك من يعمل في تجارة الجملة في المواد الغذائية، وهناك من يعمل في الاستيراد والتصدير بين البلدان الأوربية أو بينها وبين دول في الشرق. كما افتتح العديد منهم مقاهي ومطاعم فاخرة في المدن الأوربية، في حين اتجه بعضهم إلى تجارة السيارات وتصديرها وتجارة الملابس والهدايا والتجهيزات المنزلية، أو العمل في مجال الفنادق والسياحة، أو في مجال البناء والمقاولات. وتخصص بعض العراقيين في إقامة حملات الحج والسياحة الدينية . ويعمل كثير من الصحفيين والاعلاميين والأدباء والكتاب العراقيين في صحف ومجلات عربية تصدر في أوربا، أو في قنوات فضائية أو محطات إذاعية تبث في أوربا. وافتتح بعض الأطباء والجراحين العراقيين عيادات خاصة بهم. لقد حقق بعض العراقيين نجاحاً كبيراً وصاروا من أصحاب الملايين والثروات.

٧- كما نجح كثير من العراقيين في الحصول على وظائف ومناصب بعضها عالية. إذ يعمل حالياً آلاف العراقيين كأطباء وجراحين ونفسيين وأساتذة جامعات وباحثين وحقوقيين في مختلف المؤسسات الغربية.

٦- الاندماج في المجتمع الغربي

لقد كان رد فعل العراقيين متبايناً تجاه الحضارة الغربية. فالبعض انبهر بالتقدم التكنولوجي والرفاه المادي والتقدم العمراني.كما بهرته أخلاق الغربيين وتواضعهم وصدقهم وخاصة أولئك الذين يتعاملون مع اللاجئين . وقد أدى هذا الانبهار إلى ارتباك ثقافي وأحياناً عقائدي حين صار يقارن بين ما اعتاد عليه من ممارسات وأفكار وبين ما يجده لدى الغرب من تقدم. فصارت الصورة تهتز عنده شيئاً فشيئاً. لذلك انجرف بعض العراقيين وراء الحياة المادية بكل صنوفها ولذاتها مبرراً ذلك بأنه لا يمكن الوصول إلى ما هو أفضل من المجتمع الغربي. وأما الذين لم تكن لديهم خلفية إسلامية أو أخلاقية عراقية فقد وجدوا ما يريدون في المجتمع الغربي. وراحوا يدافعون عنه وعن قيمه.

والقسم الثاني لم ينكر اعجابه بالمجتمع الغربي المتطور لكنه انتبه إلى سلبياته كما أعجب بإيجابياته. الأمر الذي دعاه إلى التأكيد على الأخذ بالإيجابيات والابتعاد عن السلبيات، دون أن ينفي أن الاسلام والثقافة الأصلية يمكنها أن تقدم شيئاً وتثري الحضارة الغربية وخاصة في النواحي الروحية والأخلاقية والقيم العليا.

لقد سبق للاسلام أن تفاعل مع حضارات وثقافات آسيوية وأفريقية عديدة حين دخل إليها واعتنقه أهلها. فلم يقلل ذلك من نمو الإسلام وانتشاره في تلك البلدان رغم اصطباغه بلون ثقافي محلي. وهذا يعبر عن مرونة الفكر الاسلامي واستيعابه لتراث وعادات الشعوب التي لا تختلف في جوهرها عن تعاليمه. هذا الأمر أدى إلى نشوء أشكال ثقافية مختلفة داخل العالم الإسلامي الذي يوحد شعوبه الانتماء العقائدي. ولذلك يمكننا توقع شكلاً جديدة للإسلام في أوربا ، ربما يمكن تسميته الاسلام الأوربي الذي يمثل تفاعلاً بين القيم والعقائد والأفكار الاسلامية من جهة والمبادئ والمفاهيم الغربية من جهة أخرى. إن التمازج بين هذين الطرفين قد يتخذ مناحي وأشكالاً متعددة، وقد يستغرق وقتاً طويلاً حتى يتبلور بشكل راسخ في القارة الأوربية. كما أنه بحاجة إلى تأصيل وتنظير يوفق بين الأصالة الاسلامية ومرونة الشريعة وبين السمات المميزة في الثقافة الغربية. يقول الباحث غالب حسن "إن ايجاد صيغة إسلامية أوربية حاجة ضرورية لنا نحن كمسلمين وعراقيين أيضاً، لأننا نريد أن نسهم في بناء أوربا الجديدة، من أجل خلق مستقبل أوربي أفضل يعمل على تسييد السلام العالمي وتحرير الشعوب من الخوف وتعميق الاحساس بالديمقراطية. إننا مواطنون أوربيون ،و نريد أن نعمل على خدمة الوطن انطلاقاً من مملكة الضمير الذي يؤمن بالقيم الروحية التي استلهمناها من الإسلام، ومن بعض ثقافتنا العراقية والشرقية في هذا الإطار وليس بوحي من منطق المادة فقط" (غالب حسن: الشباب العراقي ومسألة الاندماج: ١١٩).

هناك شعور لدى طبقة عريضة من العراقيين أنهم ما يزالون ضيوفاً في هذه المجتمعات، لذلك لا يبدون أي ميل نحو تأسيس مؤسسات دائمية ، بل يعتبرون وجودهم مؤقتاً حتى لو مضى عليهم عقدان من الزمن. ربما يمكن تفهم هذا الشعور بسبب الحنين للوطن واحتمال العودة إليه بين لحظة وأخرى، لكن يبقى هذا الشعور غير منطقي لأن ليس من المعلوم أن غالبية العراقيين سيعودون إلى العراق بعد سقوط نظام صدام. وحتى لو استقامت الأحوال في العراق، فستبقى بعض العوائق التي تعيق عودة المهاجرين إلى العراق مثلاً سيبقى أولادهم من أجل إكمال دراساتهم، أو أن بعضهم لا يجيد اللغة العربية ولا يستطيع العودة، أو ربما أن وضعه المالي في العراق لن يكون جيداً فلا يشجعه على العودة، أو ربما يرى أن المستوى المعيشي والرفاه المتوفر له في الغرب أفضل من العودة، وربما لا يريد التنازل عن الجنسية الغربية التي يعتقد أنها توفر له الأمان في ظروف التقلبات السياسية في العراق. صحيح أن هناك أعداداً من العراقيين تفضل العودة لكن هذه الحالة ستكون تدريجية وتحتاج إلى وقت من الزمن.

٧- الإلتزام بالقوانين الغربية

عندما يدخل المهاجر العراقي إلى أوربا يشعر مباشرة بوجود قوانين ومقررات تختلف كلياً عما اعتاد عليه في العراق. فالقانون محترم إلى درجة قصوى ، والناس تلتزم به بشكل دقيق لأنه ينظم حياتهم وعلاقاتهم ويضمن حقوقهم وحرياتهم. وهذه القوانين هي التي سمحت بدخول المهاجرين إليها، ومنحتهم حق اللجوء السياسي والاقامة فيها والتمتع بالحريات السياسية والدينية أسوة بأهل هذه البلدان. لذلك يتوجب على المسلمين المقيمين فيها احترام قوانينها ورعاية النظام العام واحترام ممتلكات الآخرين. يؤكد فقهاء الشيعة على أن الالتزام بالقوانين الغربية هو واجب شرعي مبني على أساس إلتزام المسلمين بعهودهم عند دخول البلاد. فيرى السيد محمد حسين فضل الله أن على المسلمين (الحفاظ على النفوس والأموال والأعراض والنظام العام في ذلك البلد) (عبد الرزاق،العالم الاسلامي والغرب: ٢٣٦). كما يؤكد السيد علي السيستاني أنه (لا يجوز السرقة من أموالهم (أي الأوربيين) الخاصة والعامة وكذا اتلافها إذا كان ذلك يسيء إلى سمعة المسلم أو المسلمين بشكل عام. وكذا لا يجوز إذا لم يكن كذلك، لكن عُدَّ غدراً ونقضاً للأمان الضمني المعطى لهم حين طلب رخصة الدخول في بلادهم أو طلب رخصة الاقامة فيها لحرمة الغدر ونقض الأمان بالنسبة إلى كل أحد) (عبد الرزاق، العالم الاسلامي والغرب: ٢٣٧).

والواقع أنه من النادر أن تجبر القوانين الغربية المسلم على ارتكاب المعصية والإثم. فهناك متسع من الخيارات يستطيع من خلالها تجنب الوقوع في المعصية . فلا أحد يجبره على شرب الخمر أو الزنا أو أكل لحم الخنزير أو الميتة أو ارتكاب الفواحش. بل العكس يتمتع المسلم في الغرب بحرية واسعة في ممارسة شعائره وطقوسه وارتياد المساجد وإقامة النشاطات الاسلامية وتأسيس الجمعيات والمدارس والمراكز الاسلامية. ويجد في ذلك حرية لا يمتع بها في أي بلد إسلامي. كما أن كثير من الدول الغربية تضع مقررات تحترم فيها عقائد المسلمين وشعائرهم. فبعض الدول تجيز الذبح على الطريقة الاسلامية، وتدفع مؤسسات التأمين الصحي أجور ختان أولاد المسلمين في المستشفيات الغربية. وتخصص بعض المطارات مثل أمستردام أو بعض المستشفيات أماكن مخصصة للمسلمين لأداء الصلاة فيها. وهناك الكثير من التسهيلات التي لا يتسع المقام لذكرها.

٨-جواز السفر واكتساب الجنسية الغربية

إن واحدة من أهم المشاكل التي يعاني منها العراقيون أثناء الهجرة هي عدم امتلاكهم لجواز سفر نافذ المفعول أو ربما يفتقدون أية وثيقة أخرى كالجنسية العراقية أو شهادة الجنسية. وهي وثائق هامة في المعاملات المدنية. كما أنها تثبت هوية الشخص واسمه وتاريخ ميلاده وبلده. وهناك قسم من العراقيين صودرت وثائقهم، إضافة إلى ممتلكاتهم، من قبل السلطات العراقية قبل تهجيرهم إلى إيران . وهناك منحهم السلطات الإيرانية وثائق مؤقتة تسمى بـ(الكارت الأخضر) التي هي مجرد إثبات الشخصية، ولا يمكن استخدامها في شراء سيارة أو عقار أو الحصول على إجازة سوق أو أية معاملة مدنية عادية. كما لا يمكن السفر بها إلى خارج إيران. وهناك قسم من العراقيين قد خرج من العراق بجواز سفر لكن هذه الوثيقة قد نفد تاريخها وصارت باطلة، لذلك يجب إمام تمديدها إذا كانت صالحة لذلك أو الحصول على أخرى جديدة مكانها. وفي كلتا الحالتين يجب مراجعة السفارات العراقية. الأمر الذي يثير الرعب في نفوس العراقيين الهاربين من جحيم النظام، لما يترتب على ذلك من تعرف أجهزة النظام عليهم وعلى أماكن تواجدهم، وقد يسبب ذلك مشاكل لأهلهم وذويهم داخل العراق. أما في الدول الأخرى كالأردن وسوريا فيشترط على العراقي إمتلاك جواز سفر نافذ المفعول كي تحدد فيه تاريخ الدخول ومدة الاقامة.

ولذلك تجد أن العراقي منذ اللحظة التي يحصل فيها على الاقامة وجواز اللجوء (سياسي أو إنساني) ، يبدأ بالتفكير ويعد السنوات للحصول على الجنسية الغربية والتي تعني الحصول على جواز سفر غربي من أجل التمتع بامتيازات هذا الجواز والسفر به إلى أنحاء العالم. وهناك قسم من العراقيين حصلوا على الجنسية الغربية وجواز السفر الغربي ثم عادوا للإقامة في بعض البلدان العربية كسوريا والأردن ودول الخليج وإيران. وهذا يشير إلى أن المشكلة الحقيقية التي كانوا يعانون منها وثائق السفر .

٩- أمراض الهجرة

يعاني المهاجرون من مختلف الأمراض النفسية والعصبية والجسدية بسبب الظروف القاسية التي عاشوها في العراق أو الأهوال التي ذاقوها في رحلة الهجرة. ورغم أن المؤسسات الصحية الغربية تقدم خدمات ذي مستوى عال من الخدمة الطبية والمعالجة النفسية لكن اللاجئين العراقيين عموماً يعانون من متخلف المصاعب النفسية بعضها يعود جذوره إلى الماضي وبعضها بسبب الظروف التي يعيشونها في البلدان الغربية،ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

أولاً: أمراض ناتجة من مسببات قبل الهجرة وتندرج في ذلك الأمراض النفسية والمشاكل التي يعاني منها قسم من المهاجرين ممن تعرضوا للتعذيب والسجن والاعتقال أو الاغتصاب في سجون النظام العراقي. فلا يزال البعض منهم يتذكر ما جرى عليه من أحداث ومصائب فيتأثر كثيراً . ولا يزال بعضهم يعاني من كوابيس في النوم وقلق وتوتر عصبي واضطراب سلوكي. كما لا يزال البعض يحمل آثار التعذيب أو نتائجها كالتشويهات الجسدية والعاهات أو الحرمان من الانجاب أو الأوجاع في الرأس وغيره أو حالات الكآبة والعصاب.

ثانياً: أمراض ناتجة من مسببات في بلد الهجرة

عندما يأتي اللاجئون إلى البلدان الأوربية يكونون قد مروا برحلة محفوفة بالمخاطر ومشحونة بالمعاناة والمجازفة. وقد يكون بعضهم قد توقف في رحلته في بعض البلدان العربية أو الأوربية ، واضطر للتكيف مع ظروف قاسية أو وضع معيشي قاسي. وقد يكون قد اضطر للإختفاء عن أعين السلطات والشرطة مخافة انكشاف امره . وقد يكون قد قاسى الأهوال أثناء عبوره إلى بر الأمان. وكل هذه تشكل ضغوطاً نفسية قوية عليه وعلى أسرته وأطفاله.

هناك قسم من العراقيين جاءوا عبر رحلات مريحة دون أن يضطروا إلى سلوك طرق برية أو بحرية للوصول إلى أوربا. كما أن بعضهم قد تم استقدامه من قبل الحكومات الغربية من خلال مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة التي جلبت مئات العراقيين من سوريا ولبنان والأردن وغيرها، إضافة إلى آلاف اللاجئين العراقيين من مخيم رفحا في المملكة العربية السعودية. فهذا القسم قد منح اللجوء السياسي قبل قدومه إلى الغرب، لكن مع ذلك قد يعاني في بداية وصوله وأثناء إقامته في مركز خاص للاجئين. كما أنهم عانوا الكثير من ظروف سيئة في معتقلات صحراوية معزولة عن المناطق المأهولة، إضافة إلى الجو القاسي.

عندما يصل اللاجئ إلى البلد الذي يريد تقديم طلب اللجوء إليه سيجري إسكانه في مراكز استقبال اللاجئين الذي يضم مئات اللاجئين الآخرين من جنسيات مختلفة. وتبدأ معه التحقيقات الطويلة من قبل الشرطة والاستفسار منه عن كل صغير وكبيرة، الأحداث والأسماء والأماكن والتواريخ وتفاصيل دقيقة لم تخطر على باله أبداً. وذلك كي تتأكد الدولة من حقيقة شخصيته وهويته وأنه فعلاً كان معرضاً للخطر في بلاده. وتصحب هذه التحقيقات الطويلة حالة من القلق العميق لأن ليس كل شخص يستطيع الاجابة على كل هذه الأسئلة، وخاصة أن الكثير من هذه القصص غير حقيقية ومفتعلة من الألف إلى الياء، لذلك تبقى تعاني من ثغرات يعرفها المحققون الذين يطلبون المزيد من التوضيحات والأدلة المادية على صحتها. ويجري مقارنة إفادة الزوج مع الزوجة فتكتشف من خلالها التناقضات بين الافادتين.

أما السكن في مركز اللاجئين فيجعل الفرد مجبراً على الاحتكاك بثقافات وعادات متنوعة، من آسيا وأفريقيا. وهي عادات غريبة عن الثقافة والعادات العراقية. وقد تحدث أحياناً مشاجرات بسبب سلوكيات غير مرغوب فيها. وتبقى العائلة العراقية الملتزمة في حرج كبير من الذهاب والإياب وتناول الطعام أو الاستحمام . طبعاً هناك بعض المراكز التي تفر نوع من الاستقلالية للعائلات حيث يتم إسكانها في بيوت صغيرة أو كرافانات ، ولكن تبقى هذه استثناءات. وقد يجبر اللاجئون على الإقامة في هذه الظروف لعدة سنوات يرافقها القلق من احتمال رفض طلب اللجوء. وتسبب هذه الضغوط كلها حالة من القلق والحزن والاكتئاب وأحياناً اليأس. فقد لوحظت بضع حالات انتحار في مراكز اللاجئين. كما يصبح اللاجئ مستفزاً بشكل دائم وأحياناً ينتابه سلوك عدواني تجاه الآخرين وحتى أهله. ولذلك تكثر المشاكل داخل العائلة بسبب حالة عدم الاستقرار.

وعندما ينتقل اللاجئ إلى مسكن خاص به أو يمنح الاقامة في البلد يدخل في مرحلة لا تخلو من المعاناة النفسية. فرغم أن الوضع المادي جيد والخدمات الطبية والبلدية والأمن متوفر لكن المهاجر لا ينفلت من بعض الأمراض النفسية والاجتماعية في البيئة الجديدة. فبعض العراقيين في البلدان الباردة عموماً كالدول الاسكندنافية وكندا ، التي يقصر فيها النهار ، والجو دائماً غائم، وتساقط الثلوج لا يتوقف، يعانون من حالات الاكتئاب بسبب الجو. كما أن بعضهم يعيش في مدن متباعدة يجعل الالتقاء بعراقيين آخرين أمراً ليس باليسير. لذلك بات كثير من العراقيين يسعى للسكن في أماكن ومدن يتواجد فيها أبناء الجالية العراقية. وهذا بحد ذاته امر جيد لأنه يوفر لهم الجو الاجتماعي وحضور المناسبات الاجتماعية والمشاركة في النشاطات العامة وبناء صداقات جديدة وتوفير أجواء جيدة لأولادهم .

ولكن هذا لا يعني أن المشكلة قد تم حلها، بل تبقى فئات كثيرة تعاني من الوحدة كالشباب العازب الذي يبقى بحاجة إلى الزواج، لكن الظروف لا تسمح بذلك. أو يعاني البعض الآخر من العزلة والاغتراب والاكتئاب. كما أن أجواء الانحلال الأخلاقي ومشاهد الجنس والخلاعة في الأماكن العامة والتلفزيون وغيرها قد تشكل جواً ضاغطاً على المهاجرين لأنهم يرونها تتناقض مع مبادئهم وعاداتهم وأخلاقهم. وقد ينحرف البعض في هذه الأجواء الجذابة فينزلقون في علاقات خاطئة وسلوكيات مرفوضة أخلاقياً.